في شوائب المعاجم

لحضرة الخوري بطرس البستاني

يثني حضرة الكاتب على جهود اللغويين القدماء الذين توفّروا على جمع شتات اللغة من افواه العرب الفصحاء ، فيحييهم بعواطف الاجلال . ولكنه لا يرى بدًّا ، في بحثه ، من ان يذكر ما شان معاجمهم من الشوائب ، واهمها ستٌّ نوردها ببعض اختصار :

الشائبة الاولى : سوء الاختيار للالفاظ وعدم التحرّز من الحوشيّ والوحشيّ

من المعلوم ان جامعي اللغة كانوا ، اذا ارادوا ان يؤلفوا كتاباً لغويًّا ، يختلفون الى البادية حيث يجتمعون بالقبائل ، فينقلون عنهم ما يروونه لهم من الروايات ، وما يسمعونه من أفواههم من الكلمات في محادثاتهم ومسامراتهم ومناظراتهم ومنافراتهم . وربما كانوا يتابعون الرحلات الى تلك البوادي السحيقة للتحقيق والتثبّت .

غير انه لا يمكننا ان نجزم بانّ كل ما اشتملت عليه معاجمهم هو منقول عن القبائل الصرحاء الذين لا منقف في عروبتهم ، ولا مغمز في فصاحتهم . والا ما كنا نرى في تلك المعاجم نحوًا من عشر الفاظها مما لا يسوغ استعماله في الكتابة ، اما لمخالفته للذوق الصحيح ، او لمكانه من الغرابة ، او لتوغّله في الحوشية والوحشية ، الى غير ذلك مما كان دفنه خيرًا من بقائه كالدُّمّل في جسم اللغة البهيّ . . .

ومما هو جدير بالاسف انه بات من الراسخ في وهمنا ان تلك الالفاظ المستكرهة لا بد من اثباتها في معاجمنا ، والّا اجترحنا افظع جريرة في حقّ لغتنا ، وأفقدناها كنزًا ثمينًا لا يعوّض . ولا نعلم متى تسقط هذه الكلمات المنبوذة من معاجمنا بل من الكتب التي تتداولها ايدي الناشئة . . .

الشائبة الثانية : عدم الترتيب

اذا تصفحت احدى موادّ اللغة ايّةً كانت ، وفي ايّ معجمٍ كان من أُمّات المعاجم القديمة ، انكرت البلبلة السائدة في نمط سردها ، وهالك ان يختلط بعضها

ببعض اختلاطاً يستفظعه كل من يضنُّ بوقته الذهبي . ولم تتمالك عن ان تحكم بان اولئك اللغويين كان همهم الوحيد ان يجمعوا الفاظ اللغة في كتبهم للرجوع اليها لدى الاقتضاء . ولم يمتدّ نظرهم الى من سوف يجيء بعدهم من الاعتاب ممن تضطرّهم الحال الى الاستعانة بمثل هذه المراجع اللغوية .

ولو كانت المادة التي تريد تصفُّحها واقعة في صفحة او صفحتين لهان الامر، ولكنها كثيراً ما تستوعب عشر صفحات ونيّفاً ؛ حتى لقد ينفد صبر الباحث عن معنى احدى الكلمات فينقلب والاسف ملءُ صدره بدون ان ينال وطراً . . .

الشائبة الثالثة : التعريف الدوري

من المقرَّر ان الغاية من تعريف الكلمات الايضاح وازالة الابهام . فاذا كانت اللفظة المفسِّرة لما قبلها في حاجة الى الشرح، او هي اغمض معنى من اللفظة المفسَّرة، اوقعت المطالع في الارتباك . وهذا الخلل قلّما يسلم منه معجم من المعاجم قديمة كانت او حديثة . واكثر ما يقع ذلك عن سهو وغفلة والّا حكمنا بالعجز والقصور على اصحابها الذين هم امراء البيان وائمة اللغة في كل عصر واوان .

والمراد بالتعريف الدوري ان تفسّر كلمة باخرى مرادفة لها ، ثم تفسّر الثانية بالاولى ، كانك تفسّر الماء بالماء . ودونك بعض مُثُل عليها منها قولهم : تلافى الامر : تداركه . وتدارك الامر : تلافاه ، وهذا التعريف الدوري لهذا الحرف واقع في جميع المعاجم وهو من الغرابة بمكان .

ومن هذا الضرب قولهم تنجّز الحاجة : استنجحها ، واستنجح الحاجة : تنجّزها . ومنه قولهم الجوّ : الهواء ، والهواء : الجوّ .

الشائبة الرابعة : التقصير في تعدية الافعال القاصرة

متى عرفت ان شيوخ اللغة وائمتها الافذاذ كثيراً ما يرتبكون في تعدية بعض الافعال القاصرة التي ذهلت المعاجم عن ذكر الحروف التي تتعدّى بها الى مفاعيلها ، ادركت ما جناه مؤلفو تلك المعاجم الى اللغة والمتكلمين بها بسبب هذا الاهمال .

ونحن لا يخامرنا ادنى ريب في ان هؤلاء الجهابذة الذين قطعوا مراحل

الحياة ، وهم مكبون على درس اللغة واستنباط اسرارها وغربلة اوضاعها ، حتى أفضت اليهم بتقاليدها وسلمتهم زمامها ، لم يهملوا مـا اهملوه لنقص في معرفتهم اللغوية . وانما وقع ذلك منهم إمـا سهواً ، او لاعتمادهم على تبحرهم في اللغـة تبحرًا يغنيهم عن تدوين ما ليسوا في حاجة الى تدوينه.

الشائبة الخامسة : الخلط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي

المراد بالمعنى الحقيقي هنا المعنى الاصلي الذي عيّنه الواضع للكلمة عند استعمالها لاول مرة ، وبالمجازي مـا تفرّع عن المعنى الحقيقي لمناسبة بينهما . وهذه المناسبة لا بدّ من وجودها بين المعنيين ، وهي بمثابة الصـلة بين العلة والمعلول . فاذا فُقدت هذه الصلة كان للغوي مجـال لان يحكم بطروء المعنى الثاني على المعنى الاوّل ، بل كان له سبيل الى القطع بان المعنيين انما استعملتهما قبيلتان لا قبيلة واحدة بعد تفرُّق القبائل واضطراب سلسلة الوضع . ومـا من شيء اصعب على اللغويين من هذه البلبلة في موادّ اللغـة ، ولاسيما اذا كانت المادة تشتمل على ثلاثة او اربعة معانٍ متباينة ، وكان لكل معنى فروعه.

وأصعب من كل ذلك ان تكون الفروع متشابكة مختلطـة بحيث لا يقوى على ردّ كل فرع الى اصله الا اللغويُّ الضليع الذي ذلّل شكيمة اللغة فسلَسَ له قيادها . اما من كان قاصر النظر في الفلسفة اللغوية فـانه يتنفس الصعداء قبل ان يتـنى له تفريع الالفـاظ وتخريجها تخريجـاً منطبقاً على سرّ الوضع ، وموافقاً لمراد الواضع.

ولا بدّ لنا في هذا المقام من ان نبين لشداة العلم ان الصلة التي يجب ان تكون بين كل اصل وفرعه انما هي ذات الصلة الواقعة في المجاز. وهو في علم البيان نوعان : احدهما المجاز المبني على التشبيه ويقـال له الاستعارة ، والآخر المجاز المرسل ، وهو ما كان اما من قبيـل التضمن كأن تستعمل الكل في موضع الجزء او الجزء في موضع الكلّ ، او من قبيـل الالتزام كأن تستعمل المحلّ بدلًا من الحالّ فيه.

اما المجاز المبني على الاستعارة فمن امثـاله قولهم : كَلِبَ فلانٌ اذا اكل

كثيراً بلا شبع واصابه شبه جنون الكلاب من عضّ الكلب. الكلِب وكلِبَ على الامر حرصَ عليه حِرْص الكلب. وكالبه ضايقه مضايقة الكلاب بعضها بعضاً عند المهارشة. وتكالبَ القوم على كذا تواثبوا عليه. وتكالبَ الناس على الدنيا اشتدّ حرصهم عليها حتى كأنهم كلاب.

واما المجاز المرسل فمن امثاله قولهم بَسَرَهُ اي اعجله، وبسَرَ النخلة لقحها قبل اوانها، وبسَرَ الدين تقاضاه قبل محلّه، فقد استعمل الفعل في الاصل لمطلق العجلة ثم خصَّصه بالنخلة والدَّين، فاشتقّ الخاصّ من العام او استعمل الخاصّ في محلّ العامّ، وهو من مواضع المجاز المرسل.

بقي ان نرشد الطلّاب الى الخطة التي يجري عليها اللغويون في تمييز الفروع من الاصول وهي انهم ينظرون في كل مادة الى المعنى المعبّر عن المحسوسات ويعتبرونه اصلاً لما يتفرّع عنه من المعقولات، لان المتواضعين على اللغة، عندما وضعوا موادّها، قدّموا في الوضع الاشياء المحسوسة على المعقولة على ما اقتضته بداوتهم في ذلك العهد. ثم اخذوا، بعد ان اشرقت في ربوعهم شمس الحضارة، يحلّقون فوق المادة ويسبحون في جوّ الخيال، فوضعوا الفاظاً كثيرة للمعاني المجرّدة التي يدركها العقل ولا تقع تحت الحواس، فكان من ذلك وثبة مباركة الى العلويّات، بعد ان قضوا عصوراً في عصور لا يتعدّون المحسوسات. وقد سلف لنا كلام بهذا المعنى في باب سابق. على انه ليس في تمييز المعقول من المحسوس ادنى صعوبة. ولكن الصعوبة في ما لو كان للكلمة معنيان كل منهما يدلّ على شيء محسوس. فاقوم ضابط لمعرفة ايهما هو الاسبق ان تنظر الى المعنى الذي قضت الحاجة على البدوي باستعماله قبل الآخر، فيكون اصلاً له.

ومما لا ريب فيه ان اللغويين القدماء انما اهملوا الجري على هذه الخطة الرشيدة في تنسيق المعاني الاصلية والفرعية، اما لاعتمادهم على مقدرتهم اللغوية، او لاقتصارهم على جمع الالفاظ في كتب اللغة حذراً من الضياع، معتبرين ان همتهم قد انتهت عند هذا القدر. ثم جاء المتأخرون ونسجوا على منوال الاقدمين، وبقيت هذه الثلمة مفغورة في معاجمنا لان الشرقيين عرفوا بالتقليد، وعزيز عليهم ان يفكوا نفوسهم من قيوده.

الشائبة السادسة: اهمالهم للالفاظ المولدة

لقد بلغ من حرص اللغويين القدماء على لغة اهل الحجاز وغيرهم من القبائل النازلين في قلب البادية أنهم اعتبروا كل ما تداولوه من الالفاظ كأنه من الآيات المنزلة فاثبتوه في معاجمهم ، وابوا ان يضموا اليه ما كانت تتداوله سائر القبائل ، ولاسيما المجاورة للاعاجم ، كانه من سقط المتاع او كأنه وباء تسري عدواه الى جسم اللغة فيفسده . ولذلك لم تر في الاسفار اللغوية كثيراً من الالفاظ التي كان يستعملها اليمنيون والغسانيون واهل الحيرة وسواهم من القبائل المتحضرة النازلة في اطراف الجزيرة او التي لها خلطة بالامم العريقة في المدنية . فافقدوا اللغة بهذا الاهمال ما لا يحصى من الاوضاع مما كانوا يستخدمونه في الاغراض التي جدّت عندهم في ابان حضارتهم ، ولم يكن للعرب في اواسط البادية ادنى عهد به .

ولولا هذا التقصير ، لما كنا اليوم على ما نحن عليه من العجز الفاحش عن تأدية كثير من المعاني والادوات الحضرية بألفاظ نستخرجها من معدن اللغة نفسها ، جارين في ذلك على الطريقة التي جرى عليها اولئك المتحضرون في ايجاد كلمات حديثة لما جدّ عندهم من المعاني ، بعد انتقالهم من خشونة البداوة الى نعومة الحضارة . فكان عن هذا التقصير ضرر بيّن لا تزال تشعر بجسامته ، ولاسيما في هذا العصر الحافل بالاختراعات والاكتشافات ، الزاهر بآيات التفنن والابداع .

على انهم لو وقفوا عند هذا الحد من التفريط لكانت البلية أخف وطأة وأيسر محملاً ، ولكنهم أعرضوا ايضاً عن اغلب الالفاظ التي جدّت في اللغة ولاسيما على عهد العباسيين ، بحجّة انها من استنباط المولدين لم تجرِ على ألسنة العرب الخلصاء ، لا في جاهليتهم ولا في صدر الاسلام . . .

فاذا تمثّلت عصر العباسيين بجميع مجاليه الحضرية ، وعرفت ان ابناءه لم يعجزوا عن استنباط كلمات لجميع المعاني والاغراض التي تولدت عندهم ، اكبرت الخطب الذي انزله باللغة ارباب المعاجم لاسقاطهم منها تلك الكلمات

المولّدة التي لو بقيت لكانت أنفس قلادة في جيد هذا اللسان الشريف .

وها نحن نورد لك هنا شيئاً من تلك الكلمات مما عثرنا عليه في تضاعيف الكتب وليس له اثر في مصاحف اللغة :

فقد جاء في كلام ابن خلدون : الالمام ، يريد به الهداية المخلوقة في الحيوان ، والوزائع ، يعني بها الضرائب التي يوزّعها الحاكم على الرعيّة . وورد في كتاب الاغاني : ندَّر الرجل وتندَّر اذا جاء بالنادرة . وقد ندَّر بفلان وتنادر عليه اذا جعله مورد نادرته . وفي الثعالبي : تطرَّف بالشيء اذا اتخذه طرفةً وهي الشيء المستملح . وجاء في نفح الطيب : بلاد معتدلة المزاج اي معتدلة الهواء . وورد فيه ايضاً : المقيّدة والمراد بها الدفتر الذي يكتب فيه الرجل ما يمرُّ به تذكرة لنفسه . وقريب من هذا المعنى التذكرة وهي الرقعة يُكتب فيها الشيء ليتذكر ، وقد وردت في خزانة الادب للحموي . ومن هذا النوع المزولة للساعة الشمسية ، ذكرها الخفاجي في ريحانة الالبّاء . والمِقال لما يُشدُّ على الرأس ، جاء في شعر لابي فراس الحمداني . وخيال الظلّ للامثلة المشبّحة من وراء ستار .

ومما هو حريٌّ بالاسف ان اولئك اللغويين قد توقّفوا عن ان يثبتوا ايضاً في معاجمهم الفاظاً شتى احدثها المولّدون فنقلها عنهم الفرنجة الى لغاتهم وشاع استعمالها عندهم . ومن ذلك لفظة (*Alcool*) المأخوذة عن الكحل ، ولفظة (*Almanach*) المأخوذة عن المناخ ، ولفظة (*Carafe*) المأخوذة عن القرّافة ، الى غير ذلك من الكلمات التي تنسبها المعاجم الاوربية الى العرب ولا يقرُّ بعروبتها ارباب المعاجم عندنا .

ونحن نحبس القلم عند هذا القدر لعله يستثير الهمم الوانية الى تدارك ما فات ، واصلاح كل خلل في لغتنا المحبوبة .